باقٍ في حيفا رغم كل شئ:

كأنّ «ظلم ذوي القربى» قدَرٌ يرافق إميل حبيبي وقومه

هشام نفاع*

■ تحت العنوان «اتهامات جديدة في كتاب للناقد خضر محجز ... هوية إميل حبيبي المبعثرة تحن الى التئام جروحها»، كتبت السيدة أمينة غصن في جريدة «الحياة» اللندنية، 11ـ11ـ06 مقالة ذات شجون تثير الشجون.

فقد تناولت كتاباً عنوانه «إميل حبيبي الوهم والحقيقة» لخضر محجز، صدر عن دار قدموس (دمشق، 2006). وهو ما لم أقرأه بعد، كونه لم يصل بعد للباقين في هذا الجزء من الوطن، الذي نسيه كثيرون من «ذوي القربى» حتى أمس القريب؛ والذي كان حبيبي أحد أشدّ الدروع لأجل بقاء أهله فيه، أسوة برفاقه الذين كتبت ذاكرة أهلنا أسماءهم بحروف من نور، مثل: توفيق طوبي، توفيق زياد، إميل توما، حنا نقارة، وتلامذتهم (الكبار بنفوسهم ممّن يعترفون بمعلّميهم ولا يعرفون لهم جحودا) كمحمود درويش وسميح القاسم وآخرين.

باستسهال يجافي التحليل بل حتى التأويل تكتب الناقدة أنه «مذ تسلّم إميل حبيبي جائزة الإبداع الإسرائيلية من يد رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحاق شامير، في عزّ الانتفاضة الأولى، أمسى كاتب البُدّع الداعي الى ضرورة تطبيع العلاقات الثقافية مع الكتّاب والأدباء الصهاينة». وهنا يروح كل الحديث ينصبّ على السياسة ضمن مسعى عجيب لتقييم الأدب. كيف؟ هكذا، لا جواب.

إن قبول حبيبي بالجائزة أثار جدلاً واسعا، وهناك متّسع كبير للتأييد والمعارضة ولو بأحدّ أشكالها. هذا شرعيّ بل حيويّ. لكنّ المسافة تظلّ شاسعة جداً بين هذا الجدل التعدّدي المُثري وبين التلميح والتلويح بأشباح التخوين. هذا سيكون اغتيالاً أكيداً للتفكير وللفكر. والاغتيال ليس من وظائف المثقف.

إنّ من لا يعرف حيفا والناصرة واللد ويافا، الشقيقات الباقيات رغم كل العنصرية والتعسّف، ومن لم يسمع حبيبي يهتف بضراوة في سخنين يوم الأرض، سيسهُل عليه الخروج ببدّع كتلك. من لا يعرف سوى العناوين البرّاقة العابرة، قد يجد نفسه متورّطاً في صفقة تسويق لم يمحّص في محتواها فيضطلع فيها، لاهيًا عما تنطوي عليه من استغلال مريب مؤلم للعقل والنفس داخل الوعي العربي المُنهك من المحيط حتى الخليج. فوكيل الاستسهال غير المجتهد لا يعرف، أو لا يهمّه أن يعرف، على سبيل المثال، إميل حبيبي الصارخ في ثمانينيات القرن الماضي، في خان العمدان، من قلب عكا القديمة، مواجهاً دعاة الترانسفير أمام آلاف من الجماهير، حيث كنت يومها بينها فتىً يتعلّم دروس الحياة، بما مفاده: «إنّنا نجتمع هنا وقد عدّى السبت في أقفية كل ذوي دعاة الترانسفير، كي نقول لهم وللعالم أجمع: هنا باقون...». أولئك لا يعرفون إميل حبيبي الذي قاد إحدى أهم مؤسسات بقائنا الثقافية والسياسية، صحيفة «الاتحاد»، التي طالما أغلقتها السلطات الإسرائيلية، لشدّة عناد وبهاء تطاولها الثوريّ «كالعين التي تلاطم المخرز». وهو مثلّ باتَ لازمةً للحمة أهلنا التي انزرعت، أيضًا، بفضل حبيبي ورفاقه في أذهاننا، نحن الشباب الفلسطيني الذي يصرّ على البقاء في وطنه، الذي لا وطن لنا سواه، وهي المقولة التي دأب إميل حبيبي على استخدامها في مقالاته وخطاباته.

الناقدة تتوقف عند مجلة «مشارف» التي تصفها بلغة تنزع للتسطيح عديم العمق بأنها مجلة «تجاورت (فيها) مقالات الكتاب الفلسطينيين والإسرائيليين». من هم أولئك الإسرائيليون؟ ما هذا التعميم المريب؟ هل سمعت عن مناهضي الصهيونية والحروب منهم؟ هل تعرف مواقفهم الواضحة الأقرب الى قضيتنا من كثيرين كثيرين من ذوي القربى المتحكّمين؟ هل قرأت ما كتبوه في المجلّة نفسها؟ لا بل إنّها تمدّ مدادها متمادياً متهمة حبيبي بتبنّي «حق تقرير المصير لليهود في فلسطين»، مضيفة بلهجة هوليوودية الطابع في إثارتها كيف «هبّت كل الجبهات الثقافية العربية مشتعلة في مواجهته، وحاسمة في رفضه». هكذا يتم تشويه التاريخ والحاضر؛ بهذه الطريقة يتم تحويل ملحمة بقاء الباقين من شعبنا في وطنهم الى هامش هزيل تحت فجاجة نصّ/كذبة «بطولات» النّظم العربية المتحكمة التي تركتنا كالأيتام على موائد لئام الاستعمار. هكذا يجري تناسي أيام حالكة شكّلت فيها معركة البقاء آخر الصخور وسط تلاطم أمواج الهيمنة والتواطؤ، وهما اللذان لا يحلان سوى متلاحمَين.

السيدة الناقدة تسخر، بلهجة تنسجم مع اللغة الريغانية البائدة، من إيمان حبيبي بـ «حتمية التحوّل الطبقي في المجتمعات، وصولاً إلى الكمال الشيوعي وجناته الموعودة». لربما أنها تمكنت من رؤية ما لم ترَه شعوب فلسطين والعراق ولبنان، من مغازي الأمركة المناهضة للشيوعية، ونعمها الديمقراطية التي بها اليوم نرفُل.. لكن أشدّ ما في الأمر من تراجيكومية تجلى في ذلك الوصف المُجافي للمعنى وتاريخيته. ولنقرأ التالي: «إميل حبيبي ينضم إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني سنة 1940، وبعد فشل ثورة 1936 (...) تحوّل من الأممية إلى القومية، وانخرط في عصبة التحرّر الوطني بحثاً عن سلطة تتلبس أيديولوجية حزبية تزعم رفض الكولونيالية الصهيونية».

لا حاجة للإطالة في هذا التشويه المريع على مستوى المعلومة التاريخية البسيطة والمؤرشفة، لأن «عصبة التحرّر الوطني» الموسومة هنا بألوان قومية من النوع الضيق، والمشكّك بها كمن «تزعم رفض الكولونيالية الصهيونية» ليس أكثر، هي هي الحزب الشيوعي الفلسطيني قبل 1948. أهكذا تتعامل الدراسات واستطراداتها النقدية مع معطيات تاريخية يفترَض أن تقع في متناول كل طالب جامعي في سنته الأولى؟ بالله عليكم وعلينا. قليلا من الجدّ والجدية. إن الحركة الشيوعية في منطقتنا تستحقّ لأهميّتها علاجات متأنّية بمبضع النقد، بأحدّ أشكاله، كأيّ حركة سياسية. بالمبضع وليس بالبلطة ولا المسدّس. ففي النهاية، الشيوعيون هم أصحاب مقولة إن المعصوم عن الخطأ هو وحده ذاك العازف عن العمل. ولكن النقد سيكون طائشًا حين يتم إغفال استيضاح الحقائق الأساسية المرتبطة به. النقد ليس حقّا بل إنه واجب، شرط التزام الاستقامة الفكرية لدى من يأخذ على عاتقه همّ مهمّة النقد.

على سبيل النوادر الساعية لتدعيم النصّ الذي لا يصادق الوقائع كثيراً، تنير الناقدة ألبابنا بكشف تاريخيّ غير مسبوق، لربّما استقته من الكتاب الذي تستعرضه، واصفة كيف «أحرقت الجماهير مقرّات عصبة التحرّر الوطني، وهرب إميل حبيبي إلى لبنان. وظلّ طوال حياته المُدافع المستميت عن حق إسرائيل في الوجود». أين تم إحراق هذه المقرّات؟ من أين هذه المعلومات؟ من أحرقها، افتراضاً؟ الجماهير؟ أهؤلاء الباقون الذين وقف حبيبي ورفاقه بأجسادهم معهم لمنع تشريدهم مع بقيّة شعبهم؟ هل تعرف السيدة الكاتبة، مثلاً، أنّ أحد أهمّ مقرّات «عصبة التحرّر الوطني» المسمى «مؤتمر العمال العرب» لا يزال عامراً محمياً في كنف أهله، داخل حي وادي النسناس العريق في حيفا، حتى اليوم؟ هل تعرف أنّ أحفاد «العصبة» الباقين يحافظون عليه كقرّة العين. يوم الجمعة الماضي، حين اشتريت خضاري وأغراضي العاديّة من «سوق الوادي» مررت بمحاذاة مؤتمر العمّال. لا يزال شامخا. وعلى جداره لوحة فنيّة، ضمن معرض جماعيّ، كُتب عليها «درب إميل حبيبي». هل تعرف الناقدة معنى كل هذا؟ هل تشعر به؟

لا أعرف الكاتبة لكني أرغب في الدفاع عنها هي نفسها في وجه قلمها، والذي كتب: «لمّا قامت دولة إسرائيل العتيدة، عاد إليها إميل حبيبي بالتعاون مع قوّة الاستخبارات التابعة للوكالة اليهودية، كما يقول معارضوه». أهكذا يكون إنتاج الثقافة؟ أهكذا يُلقى الكلام على عواهن نخيله المتيبّس؟ أهكذا تُصاغ الادّعاءات النقدية وكأنّه يكفي إضافة جملة «كما يقول معارضوه»، لتمسي دليلاً ثاقبًا على صحّة الادّعاءات الواهية؟ أبهذه الصيغ المستسهلة الواهية تُثقَّف الأجيال العربيّة؟! ثم أنّه ما معنى تفشّي المحاولات المريبة لدمغ مثقفينا الفلسطينيين المناضلين في هذا الجزء من الوطن بعلامات سؤال قاتمة على تاريخهم؟ من يخدم هذا بالضبط؟ هذا سؤال للتفكير بتبعات الاستسهال.

لكنّ الحقيقة هي أنّ هناك ما أثار فيّ ابتسامات ساخرة. مثلاً، التفسير العجيب الغريب للمُقتبس التالي عن إميل حبيبي، ونصّه: «مليح ان صار هكذا، وما صار غير شكل». (الاقتباس غير دقيق، بالمناسبة، وهو من رواية «المتشائل»). فكيف فسرت الناقدة أو تبنّت تفسير هذا الاقتباس؟ هكذا تكتب: «وعى حبيبي ان طقس التطهّر من الماضي وكوابيسه لا يتم إلا بالاعتراف الكامل بتحول الماضي حاضراً لا يشبهه، بل ينقضه ويهدمه». يا لقسوة وإجراحات عدم فهم المقروء لدى من يُفترض فيهم سعة المدارك الدراسية والنقدية. فقد وردت تلك المقولة في ذروة من السخرية الذاتية السوداء المرّة، بصدد ما وقع للباقين من شعبنا الفلسطيني في وطننا، حين وجدوا أنفسهم يبحثون ولو عن أخفّ بصيص من نور لمواجهة العتمة الباردة الحالكة التي أحاطت بهم، «وبفضل» غير قليل ممّن امتلكوا ولا زالوا يمتلكون متّسعاً من «جرأة» للوم الضحيّة. فرانتز فانون رفض لوم الضحية، في سياق رفض الاستعلاء الأخلاقي للاستعمار على مقاومة ضحاياه. في مسرحيته «لكع بن لكع» يكتب إميل حبيبي «لا تلوموا الضحية» في سياق الدفاع عما يضطرّ عليه المقهورون لضيق الحال. يمكن استعارة الفكرة لتلائم سياق جدلنا هنا، ومطالبة ذوي القربى بالتمعّن قليلاً في تعقيدات مسيرة هذا الجزء الحيّ من الشعب الفلسطيني الذي كان ولا يزال قابضا على الجمر، قبل أن يقدّموا على فعل المحو. خاصة إزاء من هبّوا وتمرّدوا على كافة ممارسات محوهم.

* كاتب من فلسطين

اميل حبيبي (القدس العربي)

«الموتى لا يكذبون» للكاتبة اللبنانية لنا عبد الرحمن:

تقشير نواة السرد بحثا عن مداخل الأنا المشتركة

إبراهيم الحجري*

■ بعد منجزها الأول «أوهام شرقية» الذي سلط الضوء من الداخل على الخيوط الشائكة بين الحقيقة والوهم في مفكرة المرأة المشرقية التي لا تنفصل كثيرا عن نظيرتها في الغرب الإسلامي، باحثا عن العطب الذي جعل الذات تنصرف إلى الزمان الخطأ والمكان الخطأ والوجهة غير الصائبة، محاولا تنبيه الذات المشتركة إلى وجهها في المرآة المعكوسة المشروخة بالخيبات والهزائم المتراكمة، ولإن كان هذا المنجز الأول قد قصر اهتمامه على تفاصيل الجراح الأنثوية، فإن القارئ اللبيب لا يفوته التنبه اليقظ للإشارات التي تنساق إلى الجمعي الإنساني العام الذي لا يستثني كائنا حيا، إنه منجز بطعم الحياة التي تختار الكاتبة أن ترى عليها العالم الذي تصنعه من الكلمات، وتسلط رؤياها عليه كي يكون بؤرة الوجود برمته.

قلت بعد منجزها هذا، أصدرت الكاتبة والصحافية لنا عبد الرحمن منجزا قصصيا ثانيا اختارت له من الأسماء «الموتى لا يكذبون»، وهو في عمقه امتداد للصرخة الأولى التي كشفت سر انتمائها وهويتها في الكتابة، وتجسيد لعمق الصوت الذي ينحفر وفق خصوصيات ملتبسة تفرض نوعا من التراكم الكمي والنوعي، ليمتد هذا الصوت ويتطور وينحت له مسارا خاصا، فكانت مجموعة «الموتى لا يكذبون» الوصلة التي تشي برغبة الكاتبة في مواصلة العزف على هذه السمفونية الجميلة التي تغرف من الحياة في تعددها، توحدها، جراحها وأفراحها، بقدر ما تحفل بالذاتي والمتخيل. إن بناء القصة بالرغم من تعدد الأصوات فيه إلا أنه يكشف تورط الذات في نوع من المحكي الذي يميزها عن باقي الأصوات النسائية المشرقية، فهي من جهة تراود الذاكرة والمتخيل، ومن جهة أخرى تستدعي اليومي المعيش الذي يجد تأثيره بشكل أو بآخر في هذه الذات، ولعل ما يجمع شتات هذه المكونات المتداخلة في جسد المحكي داخل التجربة هو عنصر السرد.

فالكاتبة لنا مبهورة بطرائق السرد وفية لها، تحكي بدهشة وشغف، وتحير بها السبل السردية، حتى أنها تضمن قصصا كثيرة في قصة لتصبح نصوصها طويلة نسبيا ومؤهلة بدراميتها وانفتاح آفاق الحكاية فيها لأن تصير خلفية لرواية محتملة، وهذا يجعلنا نتمثل الخيال الخصب لدى الكاتبة ومدى انسيابية المقدرة لديها على ابتكار الحكايات وصنع حوارات وخلق عوالم تستمد كينونتها من الواقع والمتخيل والمتداعي.

وإذا انطلقنا لمحاورة المجموعة ومشاكستها، من العتبات الأولية نجد أن المقولة العنوانية تمتح جذورها المرجعية من عنصرين:

ـ عنصر تراثي متمثل في المثل الشعبي الذي يرسخ مقولة عدم كذب الأموات القادمين من العالم الآخر.

ـ عنصر دلالي ـ تداولي يهاجم فكرة إلقاء الأخطاء على مشجب الآخرين.

أما اللوحة الأنيقة التي تزين الغلاف فهي تضع المشاهد أمام ترف من الألوان والأشكال المنسجمة، وكأنها جدارية من العهد القديم، وفيها ما فيها من عبق التاريخ والجمال، حيث عصفورة تجلس بفرح على كتف فتاة تقف جنبا إلى جنب مع رفيقها الغامض، وحيث يتصاعد دخان أصفر من أقبية لا تظهر ومداخن مستترة. كل هذه المشيرات التي تجعل النص في حيرة من عتباته، وتضع القارئ أمام فسحة كبرى لبناء كشوفاته.

والأكيد أن النص حافل بفكرة البحث عن حقيقة ما أو لنقل يحرص على الكشف عنها في زاوية ما من الكون، وهو لا يمنحها بقدر ما يجعلك تستمتع بالمسرود وأنت تتمرد، في الآن نفسه ضد الطمأنينة التي غالبا ما تكون من المنتظرات الكبرى لقارئ السرد العربي، فأول نص من المجموعة ينطلق من فكرة البحث عن حقيقة موت الخال، الرجل الذي ترك في الروح فراغا كبيرا، فراح السارد الشخصية يتقمص له وجودا أسطوريا يشبه الوهم، في كل الأماكن والطرقات والمحافل، إن الخال هنا مجرد فكرة معينة لا علاقة لها برجل من شحم ولحم، يتعلق الأمر بفلسفة طرح السؤال وعدم الركون إلى القراءة الجاهزة التي تريد المعنى جاهزا وبدون رتوش. الكتابة هنا تستنفر القارئ ليعيد بناء مفاهيمه وتجديد رؤاه لتتكيف مع منطق التحول الذي يقتضيه تناغم النص مع محيطاته المتعددة وانسجام خطاباته مع ما يحفه من نماذج.

وتحاول لنا عبد الرحمن في مجموعتها هذه، القبض على تفاصيل يومية من المعيش المليء بالغرابة والقلق والسؤال والفوضى، ساعية إلى إعادة بناء الواقع نفسه وفق نظام ما يجعل أمر الخلوص من شرنقته محتملا، مستعينة بخيالها الجامح وقدرتها على التوهم وافتراض اللامعقول والغرائبي. وقد صنعت الكتابة لعبتها في المجموعة بأجور هذه العناصر كلها بلغة تقريرية همها السرد، باحثة عن فرادتها وجوهرها من جودة السبك وتلميح العبارة لا من بريق الكلمة ومخاتلاتها. إن بلاغة النص تكمن في حفره عن القيم الجمالية في الكون، ونزوعه الإنساني العميق، ومراهنته على بسترة اللقطة الواقعية اليومية بسؤال الذات وفبركة الكل بدسم الخيال والتقاط الغريب، وهكذا تنطلق الذات الساردة من جوهر قضيتها الفردية لتنتهي إلى جوهر القضية الإنسانية المشتركة التي تذوب فيها الفوارق والأجناس والعقليات والألوان. إن المجموعة لا تتخذ بعد البحث عن مطمح الذات وسؤالها الفردي بل تتخذ من هذه الذات فجوة للإطلال على أسئلة الوجود والعلاقة بين الذات الجمعية والآخر الذي يعكس، بصورة ما، الحلم أو الوجع السري للمشترك الجمعي.

تراهن المجموعة، ذات المظهر الأنيق، على جمالية العبارة وبساطة المعنى وغور الفكرة وعمق الفلسفة التي تتجسد في القيم الجمالية والفنية التي تطفح بها اللغة والخطاب معا، فلنا عبد الرحمن تلتمس الجمل السردية وتستعين بحدة الملاحظة عندها، وخصب الخيال، وحصافة الذهن، وقوة الذاكرة، قصد ابتكار قصصها وعالمها السردي من اللقطة الملاحظة ذاتها، تلك التي يشاهدها المتلقي يوميا، غير أن الحس الفني لديها يجعل الواقعي مغلفا بالعجيب واللغوي ملتبسا بالذهني، وتتحول البياضات والسوادات مخبأ للأحلام المحطمة على مرايا الواقع المتعددة التي تبخس هذه اللمعات فتنتها وقوة جذبها في الحياة. وتستطيع أن تدرك الرؤية المغتالة، عبر المنجز، بريقها وان تختطفه من صميم عالم آخر هو، بالتحديد عالم النص. إن سحر الكتابة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، يتأتى من قدرة لنا عبد الرحمن على فتل أحبولتها الحكائية من خيوط الواقع والخيال، تلك الأحبولة المطلسمة بكثير من الوعي بالذات وبالآخر في تواشجاتهما وتماساتهما القلقة الأقرب إلى التماس الكهربائي.

إن الوعي بالواقع وبالذات وبالآخر هو ما يجعل الفعل السردي مغريا، لما ينغل به من حياة، وما يتفتق عنه من أسرار التأويل. لنا عبد الرحمن، إذن، تفتح لنا بوابة اكتشاف الذات المتسربلة بوعيها المغترب، داخل النص وخارجه، حتى ما إذا أغوتك الحكاية، تجد نفسك أسير عوالم المتاهة النصية التي تفاجئك بعمق رؤاها وبفخاخ وعيها القاسي المضرج بدماء الفضيحة والخداع والسخرية، فتحار أين تموقع نفسك: في الساخر أم المسخر منه، في المقروء أم القارئ، في النص أم خارجه، وتلك قيمة مضافة للنص السردي لدى لنا عبد الرحمن.

*قاص وناقد من المغرب

هيدغير والنازية: أية قضية؟

دافيد رابوين

ترجمة: د سعيد بوخليط

■ لا تكمن إشكالية علاقات هيدغر HEIDEGER، بالنازية في إقامة وجرد وقائع، بقدر ما تتأتى المسألة في تأويل صلاتها بعمل الفيلسوف. صعوبة يغذيها صمت هيدغر HEIDEGER.

الوقوف عند الوقائع، فيما يخص قضية هيدغر HEIDEGER مع النازية ليست غامضة ومعقدة، بحيث لا تخول لنا تخيل السجالات المتعددة التي أحاطت بها . لكن الصعوبة التي يجب دائما وضعها في موقعها الصحيح، هي بالأحرى تحديد أية علاقة تقيمها هذه الوقائع مع ما يمكننا قراءته في عمل الفيلسوف.

نعرف بأن هيدغر HEIDEGER انخرط في الحزب الوطني الاشتراكي النازي NSDAP يوم 1 ايار/مايو 1933 بشكل علني (أو كما قال هوسرل HUSSERL بطريقة مسرحية كليا). وبعد ذلك بقليل، جاء تعيينه رئيسا لجامعة فرايبورغ FRIBOURG أواخر أبريل 1933.

بهذه المناسبة ألقى كلمته الشهيرة «خطاب رئاسة الجامعة»، حيث بإمكان كل واحد الاطلاع على هذا النص حتى يشكل فكرة عن الأمل الذي عبر عنه بخصوص نهضة الجامعة الألمانية (نهضة، ليست ذات طابع فكري خالص. مادام النص قد انتهى بنداء إلى «قسم الدفاع» الذي وضع في نفس مقام قسم العمل «وكذا قسم المعرفة»).

منذ سنة 2000، أصبح بإمكان قارئي الألمانية الوصول إلى مختلف الوثائق المنشورة والتي تم تجميعها بنفس النمط في الجزء السادس عشر من «الأعمال الكاملة» (فرانكفورت 2000). جدير بالملاحظة، أن إصدار هذه النصوص أراده وخطط له هيدغر HEIDEGER، حتى وإن كان هذا لا يحكم في شيء على المعنى الذي يمكن إعطاؤه لهذا القصد، فإن الأمر يستبعد بالتأكيد أن نبقيها بشكل سريع جدا عن بعد، باعتبارها مجرد أشياء «خارجية عن العمل». نعرف أيضا، مع تطور إصدار هذه الأعمال بأن مجريات العصر لم تعمل إلا على إغراق بعض المفاهيم المركزية في الفلسفة الهيدغيرية (الدزاين DASEIN، تباين الوجود والآنية، الأصالة داخل تأويل سياسي).

1ـ مسالة معاداة السامية:

أغلب الدعاوى التي أقيمت ضد هيدغر HEIDEGER وظفت من أجل إظهار بأن هذا الإنخراط لا يرتبط فقط بعماء عابر، ولكنه يندرج ضمن استمرارية يمكن إعادة ربطها إذن بالسياق السياسي الذي تطور داخله، أو بعض المظاهر الفلسفية التي جاءت في كتابه: «الوجود والزمان 1929 (لاسيما إشارته للعلاقة بين تاريخية الدزاين DASEIN وكذا «وحدة مصير شعب»).

ويستند المدافعون عنه، في كون إشارات كتلك لا تشكل دليلا على «النازية» إلا بقراءة استذكارية موجهة. وثائق عملت على تفعيل أو تفريغ جدالاته، وأكثرها بالتأكيد إثارة هي تلك التي تمس معاداة السامية. هكذا، تم اكتشاف رسالة سنة 1929 ينبه فيها هيدغر HEIDEGGER قائلا: «إما نهب من جديد حياتنا الروحية الألمانية لقوى ولربين حقيقيين؛ ينبعثون محليا، أو نسلمها نهائيا إلى عملية تهويد متنامية بالمعنى الواسع والضيق كذلك للكلمة». تأكيد، قد يوضع بشكل متواز مع ذلك الذي جاء به هوسرل HUSSERL حينما كتب سنة 1935 إلى «ديتريش ماهنيك» DEITRICH MAHNEKE، في غمرة من المرارة أمام هذا التطور لتلميذه القديم: (لقد عبر عن معاداته للسامية بطريقة قوية أكثر فأكثر، هذه السنوات الأخيرة . نفهم من ذلك، خلافه مع فريق من طلبته اليهود الأكثر موهبة داخل الكلية). على النقيض، فإن المدافعين عن الفيلسوف يشيرون إلى عدد فلاسفته اليهود. أما دفاعه الذاتي فقد كتبه إلى «حنا أرنت» HANNAH ARENDT بالضد لما أشار إليه باعتباره محض وشايات (رسائل ووثائق أخرى، غاليمار 2001 ص71ـ70). أو أيضا انتقاده الحاد لـ«البيولوجية» التي تتوخى إقامة نظرية عرقية.

استقل هيدغر HEIDEGGER من وظائفه كرئيس للجامعة في نيسان/ابريل 1934 لكنه احتفظ ببطاقة الحزب واستمر في الالتزام بتسديد اشتراكاته إلى غاية انتهاء الحرب، وكذا نسج علاقات جيدة مع كتاب نازيين مثل: إيريخ روتاكير ERICH ROTHACKER وكارط لوفيط LOWITH الذي التقاه بروما سنة 1936 حيث يروي في كتابه: (حياتي في ألمانيا قبل وبعد الحرب 1933 هاشيت 1988). بأنه لم يخف أي سر بخصوص إيمانه بهتلر HITLER معتبرا بأن الوطنية الاشتراكية هي السبيل المحدد لألمانيا.

2ـ نقاوم لكن ضد أي شيء ؟

لكن يمكننا أن ننتظر كذلك، تأكيد هيدغر HEIDEGGER بأنه ظل تحت مراقبة بل واضطهاد النظام عندما قاومه روحيا ما بين 1935/1934 والحال أنه، إذا وجدت تقارير سرية بخصوص هيدغر HEIDEGER فبإمكاننا أن نلاحظ بأن أولئك الذين اطلعوا على أسرار ارشيفات الوزارة الفرنسية للشؤون الخارجية، إما فضلوا مثلا (التركيز على أن هيدغر HEIDEGER، ظل إلى غاية 1938 محل «ثقة» سياسيا. ولم يعط أية إشارة ملموسة تؤكد معارضته للنظام). أ

و استصحبوا إشارات محددة لطبيعة حزب ضم كتابا مثل «ارنست كريك» الذي ترأس مجموعة ضده داخل الحزب. توضيح كهذا، ليس مهما فقط لإظهار أن «مقاومة» هيدغر HEIDEGGER لم تدركها بعد أجهزة المخابرات سنة 1938. لكنه يذكر أيضا بأن صلة الفيلسوف مع ما يمكن إدراكه كشكل من الإيديولوجيا المهيمنة للنازية، هو مظهر يجب أن يتميز عن التزامه داخل الحركة السياسية. إنه خطر كبير جدا، في مثل هذا النوع من التقصي بالحديث عن «نازية» كجوهر متجانس وغير تاريخي ثم ننسى بأنه كان من البديهي، ليس أقل من أية حركة سياسية أخرى، اجتياز توترات ايديولوجية قوية. بتوخينا إظهار هذه السمة المنعزلة أو تلك كرمز للنازية (أو بالتماثل رفض النازية) فإننا نوشك دائما على السقوط في الكاريكاتور. أن يكون هيدغر HEIDEGGER قد هوجم بطريقة قوية جدا من قبل بعض النازيين فذلك أكيد. شيء سيأخذ معنى مختلفا إذا ذكرنا بأن الآخرين هم الذين دافعوا عنه. كذلك تخلصه الفوري وبشكل صريح جدا من كل مفهوم احيائي BIOLOGISANTE للجنس LA RACE، لا يأخذ المعنى نفسه إذا عرفنا بأن هذا المفهوم الذي دافع عنه بالخصوص الفرد روزنبرغ ROSENBERG ALFRED يتعارض داخل الحزب مع مفهوم «ثقافي» للجنس. هذه الملاحظة ليست أساسية من أجل تجنب بعض الإيجاز، لأنه بدونها تستحيل ببساطة قراءة وفهم النصوص . هكذا وجدنا في درس شهير لسنة 1935، فصلا واضحا بين «ما وجد اليوم في السوق باعتباره فلسفة للوطنية ـ الاشتراكية» التي تخلص منها هيدغر HEIDEGGER بشكل حازم، ثم ما يحدده باعتباره «حقيقة وسمو هذه الحركة» (مدخل إلى الميتافيزيقيا. صدر سنة 1953 وترجمه إلى الفرنسية ج.كوهن سنة 1958) . مفهومه إذن واضح جدا بخصوص مسألة: «كل تساؤل جوهري للفلسفة يظل حتما لا آنيا. «ولا يمكنه بأي حال من الأحوال، الاكتفاء بأن يكون تتمة لبعض من «فكر الزمان». حيث ستسهل مهمة إظهار، بأن هيدغر HEIDEGGER عارض «الفلسفة النازية». المسألة ليست هنا بل من الضروري معرفة إذا قامت هذه المعارضة أولا قياسا على «حقيقة وسمو هذه الحركة». أو كما فسر بوضوح ذلك هيدغر HEIDEGGER. فإن المهمة الفلسفية شرعيا لا يمكنها الاكتفاء بأن تكون صدى للزمان (WIDERKLANG)، بل عليها مع ذلك الدخول في تناغم GEINKLAN، «بل وأن تصير رنانة قبليا (vorklang). والوصول إلى «فرض إيقاعها الخاص» (مدخل إلى الميتافيزيقا. غاليمار ص21/20). أن يكون هيدغر HEIDEGGER معارضا «للفلسفة الوطنية الاشتراكية». فإنها البداهة ذاتها لأن ما نبيعه في السوق تحت هذا العنوان، يتناقض مع ما يمكن أن نقصد به فلسفة بحسبه.

لكن هذا، لايقول أي شيء بالتأكيد حول الكيفية التي يقوم بها «تناغم» فلسفته مع النازية، نفهم من ذلك بعد استقالته من رئاسة الجامعة

3ـ تفسير التفسير:

بالنسبة لدفاعه، يدعي هيدغر HEIDEGGER، بأن الدروس التي ألقاها بعد 1934 شكلت «تفسيرا» نزاعيا AUSIEN ANDERSTZUNG «مع النازية. لايغيب عن المدافعين عنه، التذكير بأن نقد التقنية و«إرادة القوة» النيتشوية وكذا «فلسفة القيم» التي اعتبرت مثل (WELTANSHAUUNG)، كل ذلك يندرج في إطار أخذ مسافة حيال مع ما أصبح فعلا «فلسفة رسمية» التي شكل ممثلوها أعداؤها الأكثر حدة مثل (إرنست كريك ERNST KRIECK رئيس جامعة هايدلبرغ HEIDELBERG، والقريب من ألفرد روزنبرغ ROSENBERG).

لكن لاحظنا، بأن هذه الوقائع لا تحكم قط بمعرفة إذا كان هذا «التفسير» يتأتى من الداخل أو الخارج. من هنا، كل الصعوبة. إضافة كذلك، من الملاحظ أن هيدغر HEIDEGGER يوظف بالضبط نفس المصطلح لكي يشير إلى التزامه لسنة 1933 «اعتقدت في هذه الفترة بأن التفسير من خلال الوطنية ـ الاشتراكية بإمكانه فتح طريق جديد ووحيد، قد يكون ممكنا للنهضة». يشير في الحوار الذي منحه إلى شبيغل SPIEGEL). «التبرير» مع النازية، هذا يعني الصراع ضدها أو البحث عن «طريق جديد ووحيد قد يكون ممكنا ؟» في أي شيء يختلف تفسير 1934 عن تفسير 1933؟

يبين التأويل الذي يؤكد بأن هيدغر HEIDEGGER أقر بخطأه في التقدير منذ 1934 وأخذ على الفور مسافات مع «النازية» حينما دخل في مقاومة روحية. وذلك الذي يتمسك بكون هيدغر HEIDEGGER قد خاب ظنه مما عاشه كخيانة بين «سمو وكذا حقيقة الحركة الداخلية»، وبأنه كان أكثر راديكالية مما رآه في: «فلسفة الوطنية ـ الاشتراكية»، الجدالات تثير الحنق. والحال، أنه بقدر ما تتراكم الوقائع للدفاع عن الفيلسوف أو إدانته، بقدر ما يبقى في الخلف دعمها الأكثر بداهة.

4ـ النقطة العمياء في «القضايا»:

لأن المنبع الأساسي لهذه «القضايا»، هو بشكل أقل عمل الفيلسوف إلى غاية 1945، من موقفه الصامت بعد ذلك . وبالتأكيد، فإن هيدغر، HEIDEGGER عمل سنة 1945 على كتابة ملخص بخصوص التزامه، حتى يدافع عن نفسه أمام لجنة تطهير. حيث كان مبررة، وكما يمكن أن نتوقع أطروحة العماء، ثم أخذه مسافة بعد ذلك. لن يغير قط بخصوص هذه النقطة إلى غاية النص المكتوب بمناسبة إعادة إصدار: «خطاب رئاسة الجامعة» (الذي ظهر سنة 1983 تحت عنوان «وقائع وتأملات»). لكن الملاحظ، هو أنه لم يبرهن بكلمات عن الحاجة في أن يقول بشكل مفتوح ما كان يفترض التحدث عنه بكلمات مضمرة في دروسه . إنه لا يبحث في كائنه الحي، على أن يزيل بوضوح الغموض الذي يمكنه أن يحوم على تموضعاته، سواء اعتبرنا «تفسيره» الملتزم بالنازية، يندرج في إطار نقد جدلي أو إرادة ليست أقل راديكالية في المحافظة على «حقيقة وكذا السمو الداخلي للحركة». حتى الحوار الذي أجراه مع شبيغل SPIEGEL سنة 1966 (تحت إلحاح كوستنير KASTNER)، وصدر بعد وفاته سنة 1976 يظل بشكل مدهش مخصص لهذا «التفسير»، مكتفيا بإدراج نقد النازية في إطار نقد آخر أكثر عمومية أي «التقنية الكونية» كما أشار إلى ذلك فعلا دومنيك جانيكو DOMINIQUE JANICAUD . النقطة العمياء لكل «قضايا هيدغر» HEIDEGGER تتجلى في: نقد التقنية الكونية، التي تستهدف أيضا الرأسمالية والشيوعية، فهل يكفي لتأسيس شيء ما يقوم باعتباره «مقاومة» للنازية؟ ألا يقوي، أكثر مما ينتقد وضعا للتفلسف يرتبط بالسياسة في شكل انتظار منعطف تاريخي؟ ألا يسحق ذلك كل خاصية للنازية، وبالتالي أيضا إمكانية التفكير فيها، مثلما هو الحال في النص المذهل لسنة 1949 حيث يشير هيدغر HEIDEGGER ـ الذي لم يتحدث أبدا مباشرة بخصوص المحرقة LA SHOAH ـ إلى أن الزراعة الصناعية كما هي في جوهرها، مثل «صناعة الجثث في غرف الغاز ومعسكرات الإبادة» (ندوة بريم)؟ هل يجب على النقيض، أن ندين له، لأنه تناول جذريا ما كانت النازية تشتركه، مع ما شكل دراما مطلقة للقرن الماضي. كل واحد سيقيم هيدغر HEIDEGGER وهو يقرؤه على القطعة كما يجب. وموظفا لحسابه هذه الأسئلة التي كانت في العمق أكثر ردود الفعل أهمية لمختلف «قضايا هيدغر».

saidboukhlet@hotmail.com

إصدارات أردنية

«منازل الحكاية: دراسات في الرواية العربية» للرواشدة

عمان ـ «القدس العربي»:

للناقد والأكاديمي الأردني د. سامح الرواشدة صدر كتاب «منازل الحكاية: دراسات في الرواية العربية» عن دار الشروق للنشر والتوزيع في عمان بالتعاون مع أمانة عمان الكبرى قدم من خلاله ثلاثة أقسام، في القسم الأول: دراسات في الرؤيا وتناول فيه «المرأة وسلطة التقاليد / وقفة على رواية رمزة لقوت القلوب الدمرداشية، الرواية والانفتاح / قراءة في الرواية المصرية، رواية بلد المحبوب / الرؤيا والتشكيل، وفي القسم الثاني المعنون بدراسات في التشكيل تناول فيه: بنية التشظي / قراءة في رواية «عصابة الوردة الدامية» لمؤنس الرزاز، الشعرية في السرد / دراسة في رواية «أنت منذ اليوم» لتيسير سبول، تجاور المتنافرين / وقفة على أعمال مؤنس الرزاز، وفي القسم الثالث: دراسات في الرواية والتراث / الحوت والقصر والمتكأ التراثي، ملامح من النص الغائب / قرا